الورثلاني: مقدمة عن رحلته و ملاحظات عن فضل علم التاريخ و الأخبار

د. عبد القادر صحراوي
جامعة يدي بلعباس

:Abstract

This research deals with observations that without Al – Warthilani on his journey .

Al – Warthilani record all observations and views which he lived during his trip and gave it the character of mysticism.

:Keywords

Al – Warthilani – history-Flight- Mysticism- Algeria- Ottoman era

تعددت مفاهيم الرحلة كثيرا ، غير أنّها تعني لغويا ركوب الإبل أو الجياد التي يتم ترويضها حتى تصير راحلة ، وتختلف الرحلات باختلاف الأهداف التي يتوخى البشر تحقيقها . وقد بدأ الاهتمام بالرحلات في القرن **3** الهجري/ **9** الميلادي، وألفت فيها كتب ومؤلفات كثيرة حتى أصبحت فنّا أدبيا وعلما مميزا. وكان للعرب عامة والجزائريين خاصة اهتماما بالغا بالرحلات. وفي هذا السياق ندرج رحلة الحسين الورثلاني خلال القرن **12** الهجري/ **18** الميلادي ، وهي رحلة اهتمت بالوصف الجغرافي والسرد التاريخي. غير أنّ التركيز كان على علم التاريخ، وكان الورثلاني عالما برحلات الذين سبقوه خاصة الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصرالدرعي المغربي ، و« ماء الموائد » لأبي سالم العياشي المغربي ، وسمّى الورثلاني رحلته :« **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار** » .

1. التعريف بالحسين الورثلاني:

ينتمي الحسين الورثلاني إلى أسرة علم وصلاح تعود أصولها حسب الكثير من المصادر التاريخية إلى شرفاء تافيلالت بالمغرب الأقصى. وانتقلت إلى مدينة بجاية، ثم استقرت في عهد جده على البجائي ببني ورثلان، وظهر من هذه الأسرة العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة. فوالده محمد السعيد عالم في التوحيد، مدرك للتصوف وفقيه محقق ويصفه بقوله(... الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه إذ أنه في التحقيق بمكان ...) [1]. وكان يدرس بزاويته ببني ورثلان مختلف العلوم الشرعية التي أخذها عنه عدد كبير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد قضاة ورجال فتوى ببجاية وغيرها من مدن الجزائر في العهد العثماني. واقتدي بأخلاقه ومثله، إلاّ أنه لم يكن ليرض بالأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة بعد أن أصبحت المناصب الدينية كالإفتاء والقضاء تشترى بالمال، ووصل به الأمر إلى الامتناع عن أداء الصلاة ومنها الجمعة خلف هذا النوع من العلماء والأئمة [2]. وكان جده الحسين مدرسا ومطلعا وباحثا وحافظا لمختلف الكتب التي تتناول علوم الظاهر والباطن، كما اشتغل مفتيا. ويذكر الحسين الورثلاني أن جده هذا قد درس بجامع الأزهر بمصر، وأن (محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارح الموطأ وشارح المواهب اللدنية) [3]، قد درس عليه. ومن أجداد الورثلاني أيضا يحيى الورثلاني الذي كان يملك خزانة من الكتب، وكان هذا الرجل فقيها ومتصوفا وعالما بالتوحيد، ومشرفا على زاوية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء الجزائر. أما جده أحمد الشريف الذي استقر في البداية ببجاية، ثم انتقل إلى بني يعلى قد تصاهر مع محمد بن يعلى حاكم الإقليم، وقد بنى له بعد وفاته ضريح تحول إلى مزار للناس كافة [4].

وقد نسب له الورثلاني الحفيد كرامات وخوارق لا يصدقها العقل، ويتصل أحمد الشريف جد الورثلاني بنسب ينتهي عند الحسين بن علي بن

أبي طالب، واختار إثر هجرته إلى مدينة بجاية المشعة بالعلم والثقافة والحضارة. وفي هذا السياق يقول الورثلاني☹... ومنهم الولي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا، إذ ثبت ذلك وهو الشريف الحسني، والذي سمعناه من أعالي أسلافنا أنه من شرفاء تفيلالت. وأمّا مقره مقر أوائله فمن بجاية، وجدنا نجل الشيخ سيدي علي البكاي [5]، ويضيف في مكان آخر قائلا(هكذا ثبت بخط جدي وهو ثقة، وأصله والله أعلم من تفيلالت أي من شرفائها) [6].

وولد الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف في سنة **1125**هـ/ **1713**م ببني ورثلان، وتلقى مبادئ تعلمه على يد أبيه وشيوخ بني ورثلان، وهكذا حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه واللغة وبقية علوم الظاهر والباطن، وانتقل بعد ذلك إلى زوايا جرجرة ودلس والجزائر [7]. ولا يزال قبر الشيخ الورثلاني يزار إلى اليوم ببني ورثلان التي كان تضم زاويته ومدرسته ومسجده، وكان الطلاب يأتونه من مختلف أنحاء الجزائر. ولقد نشأ الشيخ الورثلاني في قريته ذات التضاريس القاسية، غير أنه لم يتعرض لهذه الفترة من حياته في مؤلفاته المختلفة، ونفس الأمر تغاضى عنه معاصروه. وركز هؤلاء على حياة الورثلاني عندما بلغ مبلغا كبيرا من العلم والفقه المالكي، وعلى الرغم من ذلك ظلت تراجم هؤلاء المعاصرين ناقصة وبعيدة عن المجالات العلمية التي اخترقها. [8]

وامتدت حياة الورثلاني من **1125**هـ إلى **1193**هـ/ **1713**م-**1779**م، ولم تهتم المصادر التاريخية والذين ترجموا له بوفاته كثيرا، اللهم إلاّ الإشارة التي بينت أن وفاته كانت في شهر رمضان. في حين يقول الحفناوي(وأمّا وفاته رحمه الله فقد رأي النبي (ص) فأخبره أنّه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن

الثالث عشر، فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق، لأنه لا ينطق عن الهوى) [9]، ويظهر لنا هذا النص عدم الاهتمام بتواريخ الوفاة، والأمر نفسه نلاحظه في رحلة الورثلاني كما سنوضح لاحقا. وأدّى هذا العلامة فريضة الحج ثلاث مرّات، الأولى برفقة أبيه وهو ابن ثمانية عشر سنة وكان ذلك في **1153**هـ/ **1740**م، والثانية عند بلوغه سن الواحدة والأربعين أي في سنة **1166**هـ/ **1752**م، والثالثة دامت ثلاث سنوات أي أنها كانت ما بين **1179** و**1181**هـ/ **1765**–**1768**م وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره [10]، وتبين هذه الرحلات بجلاء الفترات الطويلة من عمره، والتي قضاها في السفر ساعيا وراء العلم، ومدرسا لمجالاته المختلفة، ومؤلفا في مختلف علوم عصره [11].

وحرص الحسين الورثلاني على توسيع معارفه، وتنمية معلوماته وثقافته سواء كان ذلك في قريته ببني ورثلان، أو خلال تنقله بين بعض مدن الجزائر، أو حتى خلال رحلاته إلى الحج والديار المقدسة. وهكذا درس على يد مجموعة من الشيوخ، ففي بلدته أخذ العلم على يد والده خاصة ما تعلق بالفقه، وكذلك علي بن أحمد بن عبد الله، والشيخ اليعلاوي وهو تلميذ جده الحسين، إضافة إلى الشيخ أحمد زروق بن أحمد بن الشيخ العنابي. وقد نال نتيجة لذلك حظا كبيرا من العلم والمعرفة، إلا أن تلهفه إلى المزيد جعله يتوجه نحو مراكز علمية أخرى خارج وطنه الجزائر، وهكذا استفاد من حجاته المتعددة إلى أرض الحجاز للاتصال بعلماء في تونس، وليبيا أو طرابلس كما كانت تسمى، إلى جانب مصر والأراضي المقدسة [12].

ففي تونس درس على يد محمد بن عبد العزيز، وعبد الله السوسي ويحيى بن حمزة. وذكر العلماء الذين التقى بهم في مصر من أمثال الشيخ محمد الحفناوي مقدم الطريقة الخلوتية وأستاذ محمد بن عبد الرحمن الأزهري

مؤسس الطريقة الرحمانية، والشيخ البليدي محمد، والعمروسي وخليل المغربي الأزهري، إلى جانب بعض الطلبة الجزائريين كأحمد بن عمار مفتي الجزائر [13].ونذكر من شيوخه أيضا الجوهري والنفزاوي والملوي وخليل الأزهري [14]، وحتى نبرز تأثره الشديد بأذكار الطريقة الشاذلية، نشير إلى تتلمذه على يد الشيخ عبد الوهاب العفيفي مربي المريدين على الطريقة الشاذلية الذي أخذ عنه الأذكار. وهناك شيوخ آخرين أجازوه في مختلف العلوم الشرعية مثل الشيخ أبي القاسم الربيعي القسنطيني، وعلى الصعيدي، وعمر الطحلاوي، والزياتي، وأحمد الاشبيلي وهو تلميذ الخفناوي، والصباغ الإسكندري، والهاشمي المغربي، وإبراهيم بن علي شعيب التونسي، ومحمد الكردي تلميذ الحفناوي، الذي أصبح مقدم الطريقة الخلوتية أيضا، ويؤمن الورثلاني بكراماته، والشيخ المنور التلمساني

ويقول الحفناوي بعد عرضه لأسماء شيوخ الورثلاني ما يلي(... ثم رجع من المشرق بعد أن امتلأ وطابه، وفاض عبابه، فعلم وأفاد، وألف وأجاد، ودعا إلى الله العباد، وقهر الجهلة أهل التعصب والعناد(، وعندما يعرّفه يقول: (هو الإمام العامل العلاّمة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد، المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق وكنز الدقائق(، إلى أن يقول(وقدوة العلماء العاملين، وبقية السلف الصالحين، محيي السنة، الجامع بين العلمين والكامل في النسبتين، حامل لواء الشريعة والحقيقة).

وتدخل الورثلاني في الكثير من الأحيان لحسم الخلافات التي نشبت بين مشايخه، عن طريق ترجيح الصواب على الخطأ، مثل ما وقع بين شيخه التلمساني وخليل المغربي حول مسائل في (كبرى) السنوسي، وفي هذا السياق يقول الورثلاني: (فلما طال نزاعهما وقد ظهر لنا ما ظهر للشيخ

خليل، قلت الحق مع الشيخ خليل، فلما خرجنا قال لي والله لقد أساءني نصرك للشيخ المذكور فأجبته بما هو حاصله أن الحق أحق أن يتبع وما ذكره هو الحق والله تعالى أعلم) [15]، وحدث أن أقحم الورثلاني شيخه التلمساني بأسئلة في البلاغة والنحو، والفقه وحتى في الكيمياء، ويظهر لنا ذلك حبه للبحث والجدال العلمي. ومما يبرز أن الورثلاني علم من أعلام عصره، هو سعة ثقافته التي شملت مختلف ميادين المعرفة، وتمكنه من علوم متعددة مثل الفقه، والتصوف والحديث وتفسير القرآن الكريم، والتاريخ، والدراسات النحوية والبلاغية، وما يسمى حاليا بالعلوم التجريبية كالكيمياء مثلا [16]. ويذكر الورثلاني حادثة وقعت لجده الحسين عندما كان مدرسا بالأزهر، أثرت فيه كثيرا وقوت من طموحه، مفادها أن جده المدرس بالأزهر قد عجز عن إعراب جملة لتلميذه محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ويعلق الورثلاني على هذه الحادثة بقوله(... وإنّما دأبهم الفقه وأصول الكلام –ويقصد بذلك أبناء وطنه–، وأما مسائل الإعراب والمنطق، والتصوف والبيان والأصول فعلى طرفي اللثام) [17]، هذا وآثر الورثلاني الاستقرار بقريته بني ورثلان، والاعتكاف بمسجد الأسرة للتدريس والوعظ والعبادة. وبسبب شهرته، قصده الطلاب والزوار من داخل الجزائر وخارجها طلبا للعلم والبركة، ومن الذين درسوا عليه محمد بن الفقيه، ومحمد السكلاوي الجزائري، ويحيى بن حمزة، ومحمد بن عبد الله من مدينة زمورة، ومحمد الجوادي، ومحمد خروف، وأبو القاسم بن مدور من بني عباس الذي اشتغل قاضيا ببجاية، وابن عمه الشيخ محمد الصالح [18].

وكان الشيخ الورثلاني كثير التردد على بجاية خاصة في شهررمضان، وذلك من أجل الرباط، والتدريس والقيام بالوعظ والإرشاد، وقد لقي فيها كل الحب والكرم، وفي هذا السياق يقول(... غير أنهم أكدوا علي ذهبت

معهم إلى زيارتها لأني محب فيها غاية، وذلك قبل بلوغي، وكنت كل عام أصوم رمضان ناويا الرباط مع تعليمي الطلبة، راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم، ونصيب كامل من عندهم ...) [19] ولا شك أنّه زار تونس عدة مرات للتدريس والتعلم والتوجه إلى الحج، وحدث أنه أقام بها خمسة أشهر، وخلالها تعرض بالدرس لكتاب الرازي المسمى (المعالم) والفتوحات المكية (لابن العربي)، وغيرها كثير، وتنقل بين مختلف مدن تونس بما في ذلك صفاقس وقابس. كما قوّى أواصر العلم مع مجموعة من العلماء مثل الهادي السوسي، والغرياني، والمفتي ابن محجوبة، وعدد من شيوخ جامع الزيتونة [20]. إلاّ أن غيرة وحسد الكثير ممن لقيهم قد دفعه إلى ترك تونس غاضبا وناقما على أهلها، وربما يعود ذلك إلى النزاعات المتكررة بين إيالتي الجزائر وتونس، ذلك أن الورثلاني يشير إلى هدم القوات الجزائرية لأسوار مدينة الكاف التونسية. ولم تثنه هذه الأحداث عن التفكير في العودة إلى تونس ومواصلة رسالته المعرفية، ثم عقد الحلقات العلمية بمدن وطنية أو خارجية [21].

ولا يمكننا الانتقال إلى الحديث عن مختلف كتبه ومؤلفاته، من دون التعرض إلى حياته الأسرية. وهكذا كانت له علاقة مصاهرة مع آل المقراني، وآل يحيى العيدلي [22]. ويمكننا القول أيضا أنه تزوج حوالي خمس مرات على الأقل، وقد اصطحب بعض أزواجه إلى الحج مثل عائشة بنت الشيخ السعدي بن المسعود بن عبد الرحمن، وعويشة بنت عبد الله بن رحاب من أولاد دراج، ويتمي هؤلاء إلى قبيلة عربية قطنت المنطقة بين جبل بوطالب وشط الحضنة، وتزوج أيضا من بنت الشيخ سيدي بركات من بني يعلى. ولعل مصاهراته المتنوعة هذه قد أكسبته شهرة ووسعت من نفوذه الديني والاجتماعي [23]. وما يظهر صدق ووفاء الورثلاني الأوصاف الطيبة التي

يصف بها أصهاره، وفي هذا السياق يقول(... فالشيخ بركات كان ناصرا للأمة، ناصحا للجماعة) [24]. أمّا صهره وصهر ابنه محمد، الشيخ عبد الله بن رحاب فهو شريف النسب وفقيه، وصاحبه في حجته الثالثة، ومكث معه في تونس عند العودة من الحج، كما تصدى معه للتدريس، وحضر وفاة ابنتيه. ولعلّ الأعداد الكبيرة للطلبة والزوار المترددين على زاويته من الأسباب التي جعلته يتزوج أكثر من امرأة، ولم يغفل الورثلاني أهله، فقد درس لأبنائه على الرغم من أنه لا يذكرهم بالاسم. إلاّ أنه يبرز أنّ عددهم كان كبيرا، واقتصرعلى ذكر ابنه محمد الذي زوجه من بنت متعلمة، هذا الابن الذي أجازه شيخه عبد الوهاب عفيفي رغم صغر سنه [25].

ويصف الورثلاني زوجته عويشة بنت عبد الله بن رحاب فيقول(... وهي الحرة الجليلة الكريمة الطيبة النخبة الشريفة، المتطلبة، فإنها تقرأ نحو الربع، وتحفظ بعض الأذكار، كوظيفة الشيخ زروق، وكانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي، وكذا بعض الرسالة لابن أبي زيد، حاصله في غاية الأدب، والفهم، والفطانة) [26]، ولا ريب أن هذا وفاء كبير من الورثلاني، الذي لم يمنعه ذلك من ترك آثار ومؤلفات عديدة، لعل رحلته أعظمها وأكثرها شهرة.

2. آثاره ومؤلفاته:

ويظهر لنا مما سبق ذكره عن العلامة الورثلاني، نشاطه وجده وعمله المتواصل بفعل سفرياته المتعددة داخل الجزائر وخارجها، رغم التطورات السياسية الخطيرة التي شهدها القرن **12**هـ/ **18**م، خاصة مسألة انتشار الثورات في شرق وغرب البلاد.

وتمكن نتيجة لنشاطه العلمي من تأليف العديد من الكتب، والتعليق عليها وذلك في الفقه والتوحيد والتصوف والنحو والبلاغة وما إلى ذلك. وتعتبر

رحلته التي سمّاها: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" أعظم وأشهر ما ألف، وهناك مؤلفات أخرى نذكرها أولا ثم نحاول شرحها أو تقديم بعض المعلومات عنها، على أن نركز على الرحلة الورثلانية. ويعتبر شرحه لقصيدة القدسية لعبد الرحمن الأخضري من أهم أعماله التي خصصها للتصوف، وله شرح على خطبة الصغرى للسنوسي، وحاشية على حاشية المحقق السكتاني التي وضعها على شرح السنوسي، وشرح على وظيفة الشيخ يحيى العيدلي الذي ذكر له بعض الكرامات. كما أن له وصف لمدينة برقة ضاع منه خلال إحدى رحلات حجه، وفسر لغزا صوفيا لأحمد بن يوسف الملياني عجز عن تفسيره علماء فاس، كما شرح كتابا عن الصلاة، وقد أوصاه مؤلفه الشيخ السمان القرشي المدني بشرحه [27].

وإن ما ذكرناه من مؤلفات الورثلاني، هو ما تضمنته رحلته، لكن هناك مؤلفات ذكرها مترجموه مثل عبد القادر بن محمد الصغير الذي نسخ الرحلة، ومن ذلك شرحه على وسطى الإمام السنوسي، وشرحه على محصل المقاصد لأبي العباس أحمد بن زكي التلمساني، وأشار إلى أنه مات فيه قبل أن يتمه، وذكر عبد القادر بن محمد الصغير أيضا شرح الورثلاني لصغير الخرشي. وفي نفس السياق يقول الحفناوي(فمن تآليفه السنية التي سارت بها الركبان، وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها، فهي حصن حصين ودرع متين، ومنها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف، وحاشية على السكتاني، وكتاب (المرادين)، وقصيدة فيها خمسمائة بيت في مدح النبي (ص) [28]". ولا ريب أن عدم ذكر الورثلاني لبعض مؤلفاته مرده إلى أن تأليفها كان بعد انتهائه من تأليف الرحلة، في حوالي

1181هـ و1182هـ/ 1767 و1768م، ومن دون شك أن هناك مؤلفات أخرى في علوم مختلفة، خاصة بعد استقراره بقريته بني ورثلان [29].

وبحكم ولعه أي الورثلاني بعلم التوحيد الذي يعتبره ضروريا للتقرب إلى الله، باعتبار ذلك سمة من سمات الصوفية، قام بشرح وتحشية عمل السنوسي، كما وضع حاشية على شرح السكتاني المراكشي على صغرى السنوسي أيضا، وفي هذا يقول الورثلاني(... وأعارني الشيخ الحطاب شارح المناسك لخليل وهو شرح جليل قد سافرت به إلى مكّة أحياه الله على السنة النبوية وأعلمته بشرحي على خطبة شرح الصغرى، فلما رآه ورأى حاشيتي على المحقق المراكشي السكتاني استحسن جميع ذلك) [30]. كما وضع الورثلاني شرحا على وسطى السنوسي، مما يدل على اهتمامه الكبير بعلم التوحيد [31]. وخص الورثلاني قصيدة القدسية في التصوف لعبد الرحمن الأخضري بالشرح، وهي عبارة عن قصيدة في آداب السلوك وتهذيب النفس، ورفض المحدثات والبدع، وسمّى شرحه (الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية)، وقد استجاب الورثلاني في شرحه لمنظومة الأخضري إلى إلحاح الكثيرين ممن كانوا يترددون عليه بالزيارة، إلى جانب عدد من تلامذته. واعتمد في شرحه هذا على الرسالة القشيرية وما كتبه أحمد زروق صاحب الطريقة المعروف، ولا غرابة في ذلك باعتبار أن الورثلاني قطب من أقطاب التصوف في عهده. [32]

وقبل التعرض بالتحليل لرحلة الورثلاني، لابد أن نذكر برحلاته داخل الجزائر وخارجها، خاصة وأنه تعود على الإكثار منها، وفي هذا يقول:"... فإني قد جبلت على حبها من صغري، وقد كثرت مني شرقا وغربا، وجوفا وقبلة، لا سيما عمالة الجزائر، فإني قد خضتها، وبحثت عن أهلها، بحثا

شديدا، تاريخا، وسيرة، وطريقة ...) [33] وقد قصد من رحلاته الجهاد والحج والعلم، وهكذا زار مدن الجزائر، وتلمسان، ومليانة، والبليدة، ودلس، وجبال زواوة، والمسيلة، وبسكرة، وسيدي عقبة، وسيدي خالد بمنطقة الزيبان، وتبسة، وقسنطينة وعنابة، إلا أنه خلد في رحلته بالتفصيل مدينتي بجاية وقسنطينة فقط [34]. ولم يغفل الإشارة إلى زيارته إلى الجنوب القسنطيني حيث مرّ بطولقة، وأولاد جلال، غير أنه لم يسجل عنها الشيء الكثير، كما زار قبر عبد الرحمن الأخضري، ومر أثناء عودته بالمسيلة. هذا وزار الغرب الجزائري وبلغ مدينة تلمسان التي وقف بها على قبر أبي مدين شعيب، وغالبا ما كانت هذه الزيارة إلى الغرب قبل بدايته حركة التأليف والتاريخ. [35]

كما زار بلاد القبائل والتقى بأوليائها وعلمائها، وبعض تلامذته، وهناك أصلح بين القبائل المتحاربة، وأتم دراسة بعض الكتب. وفي بجاية وقف على قبور الأولياء، واجتمع بالقاضي أبي القاسم بن إبراهيم، قبل أن يعود إلى قريته محملا بالهدايا النقدية والعينية باعتباره صاحب زاوية وولي يتبرك به، ونشير إلى أنه خصص حوالي ثمانين صفحة لرحلاته الداخلية في رحلته [36]. أما فيما يتعلق برحلاته إلى الخارج، فقد كانت أولاها نحو تونس لاكتساب العلم، ومن ثم اتجه نحو الأراضي المقدسة للحج برفقة أحمد زروق بن الحاج صديق والده. ثم قام بثلاث رحلات نحو البقاع المقدسة، مر خلالها بالكثير من الأقطار العربية مثل تونس، وليبيا، ومصر أين اتصل بعلمائها، واقتنى منها الكتب. وصادف خلال حجته الثانية، وفاة أبي سالم النفزاوي، وحضر جنازته ووصف لنا موكب جنازته، ومن ثم فإن حجته هذه كانت في سنة **1168**هـ/ **1754**م التي تصادف وفاة هذا الشيخ، ومن

أسفاره ندرك تعلقه بالعلم والولاية، وقدرته على تحمل مشاق وأخطار السفر، وفي ذلك يقول: "إن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ" [37].

- **رحلة الورثلاني:**

يمكننا تقسيم الرحلات خلال العهد العثماني إلى علمية وحجازية، وضمن النوع الثاني تدخل رحلة الورثلاني المسماة (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، ويبرز هذا العمل شعوره بالتاريخ، خلافا للعلماء الذين عاصرهم. وقد حز في نفسه عدم اهتمام أهل وطنه بالتاريخ وسخريتهم من دراسته ودارسيه، بينما رأى هو أن علم التاريخ يزيد في فضل الإنسان، ويبعده عن القبائح، ويرى أيضا أن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ، وهو طموح إلى نيل مرتبة عليا علما وولاية [38].

وتضمنت مقدمة رحلته ذكر الأهداف من تأليفها، فهي عبارة عن تراجم لحياة عدد من العلماء والأولياء، الذين ذكر أوصافهم، ودعا إلى الاقتداء بهم، وتتبع آثارهم، باعتبار أن هذا النوع من الآثار منعدم في الوطن، وفي هذا يقول: "لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا، فرسمنا كل ذلك رسما جيدا، فحفظت من كل خلف وصف أسلافه، ونقلت من كل نوع أخبار أصله، علما مني لا يمجه السمع السليم، والطبع المستقيم، ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا، ورحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا). [39] كما تعرض بالتفسير لمعالم طريق الحج الوعرة والسهلة، مما يجعله يعرف من خلالها مدى استطاعته أو عدمها على الحج، واشتهرت الرحلة منذ أن انتهى من كتابتها، وقد نسخها سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي في سنة **1182**هـ/ **1768**م، وربما يكون قد نسخها مرة أخرى. وتوجد منها حاليا بالمكتبة الوطنية في الجزائر عدة نسخ منها ثلاثة تحت رقم **2171** و**2743**

و2968. وكانت قد صدرت أول طبعة حجرية لها في تونس في سنة 1903م، ثم طبعت بمطبعة بيارفو نتانا بمدينة الجزائر سنة 1908م، بعد أن صححها محمد بن أبي شنب الذي قابل ثلاث مخطوطات، والنسخة المطبوعة بتونس، ونشرها بطلب من الحاكم العام الفرنسي جونار. وتحتوي النسخة على 713 صفحة، بالإضافة إلى خمس صفحات تشمل مقدمة الناشر والمصحح، مع ذكر ترجمة للمؤلف، وهناك 105 صفحات من الفهارس الخاصة بالأعلام، وأسماء الأماكن والقبائل والأعراش، وأخيرا أسماء المصادر التي تزيد عن 330 مصدرا في مختلف العلوم [40].

وعلى الرغم من الحشو الذي ميز الرحلة، والتكرار ونقص الترتيب، إلاّ أنها عبارة عن مؤلف عام جمع العديد من العلوم مثل التوحيد، والفقه، والتفسير، والنحو، والبلاغة، والصرف، والتصوف، ومادة تاريخية وجغرافية غزيرة. وإضافة إلى ذلك تعتبر الرحلة شهادة عن الأحوال السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية في الجزائر والوطن العربي، أو على الأقل البلدان العربية التي مر بها أثناء رحلة الحج إلى الحجاز. واعتمد الورثلاني على مجموعة من المصادر في كتابة رحلته منها رحلة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، والمعروفة بالرحلة الناصرية، وكتاب (النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة) لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة﴾ لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وكتاب)عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان﴾ لمحمد الشاطبي، وكتاب (الأدلة السنية في مفاخر الدولة الحفصية) للشيخ ابن الشماع الحفصي، واقتبس أيضا من (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، و(رياض الصالحين) لعبد الرحمن الثعالبي. كما اعتمد على مصادر

أخرى في الفقه والتصوف والتوحيد، تجاوزت الثلاثمائة مصدر، منها الوغليسية لمحمد الوغليسي، وصحيح البخاري، وكتاب خليل لابن إسحاق وغير ذلك [41].

ولم يهتم المؤرخون والدارسون برحلة الورثلاني إلاّ مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل شارل فيرو (Féraud) في سنة **1869**م في بحث عن مدينة بجاية، وكانت دراسته خاصة بسكان المدينة وجبال المنطقة الوعرة. ونفس الشيء قام به فايست "Vayssettes"[42] في **1869**م أيضا، إذ تناول جوانب من حياة الورثلاني وعلاقاته بالبايات. وفي مطلع القرن العشرين، وعلى إثر طبع الرحلة واهتمام الباحثين بصاحبها، ترجم أبو القاسم الحفناوي للورثلاني في القسم الثاني من كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) الذي طبع بالجزائر في سنة **1906**م. كما اهتم مارسيي "Mercier" برحلة الورثلاني في سنة **1931**، وطالب بترجمتها إلى الفرنسية، الأمر الذي دفع الحاج صدوق إلى نشر دراسة عن الرحلة في المجلة الإفريقية سنة **1951**م. وبعد ذلك تناول حياة الورثلاني عدة مؤرخين مثل خير الدين الزركلي سنة **1927**م، ثم كراتشو فسكي من الاتحاد السوفياتي سنة **1957**م، وعادل نويهض في معجمه عن أعلام الجزائر [43].

ويبرز هذا الاهتمام برحلة الورثلاني أهميتها وقيمتها التاريخية الكبيرة بفضل ما اشتملت عليه من معلومات مهمة لها علاقة بالحياة السياسية والاقتصادية وأسلوب العيش، ومستوى الثقافة، والعادات والتقاليد، والاهتمامات الشعبية للمدن والبلدان التي زارها خلال رحلته إلى الحج انطلاقا من مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة،

الحامة، توزر، زواوة، طرابلس، تاجوراء، لبدة، زليتن، مصراتة، بلاد السرت، ثم إقليم برقة والإسكندرية والقاهرة والمدينة ومكّة، أما في طريق عودته فقد مر بالقاهرة والإسكندرية، وطرابلس، وتونس، والكاف، وقسنطينة وزمورة قبل أن يصل إلى قريته بني ورثلان [44].

ومما يظهر القيمة التاريخية لرحلة الورثلاني اتسامها بالمميزات الآتية:

- الالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث، ويعبر عن رأيه بصراحة، وينتصر للحق إذا رأى في ذلك مصلحة عامة.

- تحرى الورثلاني الحقيقة، ولم يكتف بالمشاهدة وإنما يسعى إلى تأكيد توجهاته بالعودة إلى مصادر الذين سبقوه كأبي سالم العياشي، والبكري، والغبريني وغيرهم.

- التزامه بعرض الواقع كما هو دون تحريف أو تشويه، ولذلك كانت انتقاداته لاذعة للحكام والولاة المسئولين في نظره عن انعدام الأمن، وسوء الأخلاق.

- تحلى الورثلاني بالتقوى والورع، في مدحه للناس الصالحين والعلماء، ويظهر ذلك في تقربه منهم وزيارة أضرحة الأولياء الصالحين.

- التزامه بأسلوب فيه الكثير من المحسنات البديعية والمرادفات، والاقتباسات القرآنية والنبوية [45].

ولا ريب أن رحلة الورثلاني رغم نقصها في بعض الجوانب، تعد موسوعة حقيقية عن الجزائر وأقطار العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر. وساهمت رحلاته المتعددة إلى الحج، وإتقانه للغة العربية، ومعرفة عادات الدول التي مرّ بها إلى إصدار أحكام منصفة على العصر الذي عاش فيه وأهله [46]. كما تعد الرحلة مصدرا أساسيا من أجل التعرف على أوضاع الجزائر، وبعض الدول العربية أثناء القرن **18**م. فقد سجل الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية، ووصف طريق الحج المحفوف بالمخاطر وترجم للعديد من العلماء والصلحاء والمشايخ سواء الذين درس عليهم، أو أولئك الذين تقرب منهم [47]. فهو عندما يتحدث عن النخبة في رحلته، يقصد العلماء الذين يقرنهم أحيانا برجال السلطة المنتمين إلى عائلات دينية ذات تقاليد علمية معروفة [48].

ويمكن الاستفادة من المادة التاريخية الغزيرة للرحلة في إعادة صياغة تاريخ هذه الفترة للجزائر مثلا، وذلك بفضل التغطية التاريخية الشاملة للبلاد، على عكس الكثير من الرحالة الأوربيين الذين اكتفوا بالتركيز على مدينة الجزائر فقط، واعتمد الفرنسيون أنفسهم على الرحلة في التعرف على عادات منطقة القبائل، حتى يتمكنوا من فرض سيطرتهم عليهم والحد من أخطارهم، وتناول الورثلاني في رحلته مختلف الظواهر الاجتماعية والشعبية، ومن ذلك أحداث مدينة بسكرة التي كشفت عن ظلم الأتراك للرعية وتشتيتها لهم، وفي هذا يقول(... اجتمع عليها –أي بسكرة– ظلم الأتراك، بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار) [49].

ولا شك أن هذه المعلومات التاريخية تمثل نظرة خارجية لشخص أجنبي عن المدينة، مما جعل تقييمه للأوضاع تقييما موضوعيا لا تحيز فيه. وسادت الموضوعية التاريخية أغلب المواضيع التي تناولتها الرحلة، وذلك على الرغم من سوء الأحوال في الجزائر والدول العربية التي مرّ بها الورثلاني خلال رحلاته المختلفة، فهو يشير إلى ظلم الأتراك واستبدادهم ليس في الجزائر وحسب، وإنما في مصر أيضا [50].

وحتى المدح الذي مدح به بعض شخصيات الرحلة، والانتقادات التي تضمنتها، إنما هي معيار مهم عن موضوعية الورثلاني. وما يؤكد هذا التوجه استعراضه لطبائع وسلوك المصريين والحجاج المغاربة، وإعادته لأصل النزاع

إلى سلوك المغاربة وأعمالهم الرديئة بالإضافة إلى ما سجله من انتقادات لجزائريين مثله مثل سكان زمورة وأهل عامر. وترك انطباعات كثيرة عن ركب الحجيج من مختلف الدول العربية، بما في ذلك ركب مصر [1] [5]. ومن هنا تعتبر المعلومات التاريخية الغزيرة التي أوردها الورثلاني تكملة لما ورد في رحلات الذين سبقوه، ومنهم الدرعي والعياشي، وتساهم في إعادة بناء تاريخ الجزائر والدول العربية التي أفاض الورثلاني بالحديث عنها في رحلته. وطغى على الرحلة أيضا ذكر الصلحاء والأولياء والمرابطين ورجال التصوف، والذين يعد الورثلاني واحدا منهم.

الهوامش :

[1] الحسين، الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، **1974**، ص. **308**.

[2] نفسه، ص. **11**، مختار بن الطاهر، فيلالي، رحلة الورثلاني، عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، د.ت، ص.**10**.

[3] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **549**.

[4] Hadj Sadok, « A travers la Berberie orientale du XVIII siècle avec le voyageur Al – Warthilani », R. Af., 1951, p.317.

[5] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **73**.

[6] الحسين، الورثلاني،المصدر السابق، ص. **603**.

[7] سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط**1**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، **1999**. ، ص. **418**.

[8] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **15**.

[9] الحفناوي، أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، بيروت، مؤسسة الرسالة، **1982** ص. **141**.

[10] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **418**.

[11] -مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **15**.

[12] نفسه، المرجع السابق، ص. **19**.

[13] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **653، 660، 666، 292، 311**.

[14] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**.

[15] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **286،302**.

[16] الحفناوي، أبي القاسم محمد، المصدر السابق، ص. **139-141**.

[17] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **304**.

[18] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **21-22**.

[19] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **549**.

[20] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **23**.

[21] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **18**.

[22] نفسه، ص. **653-661**.

[23] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **668-683**.

[24] المهدي، البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة، القبائل الصغرى والكبرى، الأصالة، العدد **14** و**15**، ماي-جوان-جويلية-أوت، **1973**، ص. **274**.

[25] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص.**16**.

[26] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **80**.

[27] نفسه، ص. ص. **172-227**.

[28] الحسين، الورتلاني،المصدر السابق، ص. **529**.

[29] نفسه، ص. **108، 308، 530**؛ مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **26-27**.

[30] أبو القاسم، الحفناوي، المصدر السابق، ص. **141**.

[31] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**؛ مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص. **27-28**؛ عادل، نويهض، المرجع السابق، ص. **70**.

[32] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **284**.

[33] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط**1**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، **1998**، ج2، ص. **97**.

[34] نفسه، ص. **130-131**.

[35] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **289**–**290**.

[36] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **37**.

[37] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **21**.

[38] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **39**–**40**.

[39] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **397**.

[40] نفسه، ص. **597**.

[41] نفسه، ص. **290**.

[42] الحسين، الورثلاني،المصدر السابق، ص. **52**–**53**.

[43] نفسه، ص. **57**–**58**.

[44] Vayssettes (E), Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837, Paris, Bouchene, 2002.p. 182.

[45] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **71**–**73**.

[46] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**–**420**.

[47] سعيدوني،ناصر الدين،المرجع السابق، ص. **420**.

[48] سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص. **398**.

[49] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **421**؛ شارف، رقية، الكتابات التاريخية الجزائرية في نهاية القرن **12**هـ وبداية **13**هـ/ نهاية **18**م وبداية **19**م، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، **1999**–**2000**.

[50] Merouche (L), Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane, I.Monnaies, Prix et revenus, 1520-1830, Paris, Bouchène, 2002. ,p.232.

[51] -الحسين ،الورثلاني، المصدر السابق، ص. **110**؛ مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **76**.